معيار الفائدة في دراسة الاستعارة وعلاقته بحكم الجودة والرداءة

الباحث /خالد جلال أحمد البسيوني
لدرجة الدكتوراة بقسم اللغة العربية كلية الاداب – جامعة المنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، وأفضل الصلاة والسّلام على من أوتي جوامع الكلم المبعوث رحمة للأنام ، وعلى آله الطيّبين الأطهار ، وأصحابه الأبرار الأخيار .

وبعد،

فإن النقد الأدبي بدأ في أول أمره تأثُّريا انطباعيا، يحكم الناقد فيه باستحسان العمل الأدبي أو استقباحه دون أن يعلل ذلك ، أو يفصح عن أسبابه ، وإنما يستند في حكمه على ذوقه ، ويستفتي انطباعه النفسي عن العمل ، وقد مثلت هذه المرحلة بدائية النقد عند جميع الأمم وفي هذه المرحلة- وبوحي من الإحساس بأهمية الذوق الشخصي، وعدّه المعيار الأساس في الحكم- وُجد من يشكك في جدوى الناقد المحترف ، واستبعاد دوره ، بل النظر إلى عمله على أنه ضرب من التدخل غير المشروع بين المؤلف والمتلقي ، وقد بدا ذلك ذات مرة على شكل حوار جرى بين الناقد خلف الأحمر وبين قارئ عادي ، قال الرجل لخلف: "إذا سمعت أنا الشعر أستحسنه ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، فقال له إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه ردئ هل ينفعك استحسانك له؟" .[1]

ثم ارتقى النقد بارتقاء ثقافة الإنسان وخبراته وتعدد معارفه ، فبدأ الناقد يعلل ، ويلتمس الأصول الموضوعية لما يبدي من حكم ، وتنوعت في ذلك المذاهب والاتجاهات ، وصارت لكل ناقد معايير ومقاييس مختلفة في الحكم ، تصدر عن أسس موضوعية ، أحيانا وعلى غيرها أحيانا أخرى.

ومن هنا كان موضوع هذا البحث **"معيار الفائدة في دراسة الاستعارة وعلاقته بحكم الجودة والرداءة"**

فتعليل الحكم يمثل الانضباط المنهجي ، إذ يتأسس على مرتكزات عقل منظم ولذلك اشترطوا في الناقد شروطا منها :

أن يكون ثاقب الذهن ، متوقد الخاطر ، غواصا على دقائق المعاني ، بارع الاستنباط ، لديه القدرة على الموازنة والتمييز بين الغثِّ والثمين ، مما يؤهله لإصدار حكم القيمة الناضج ، بالإضافة إلى الأهلية العلمية التي تتوفر عليه .

ولذا تباينت معايير الحكم للاستعارة بالجودة أو الرداءة ولعل من هذه المعايير:

معيار الفائدة في دراسة الاستعارة :

فالتعبير الاستعاري سمة أسلوبية رفيعة عندما تستعمل بشكل حسن فهي تعطي فكرتين في فكرة واحدة .

---

[1]) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ج1 ، دار المدني بجدة ، 1974، ص7.

وعن حقيقة الاستعارة فهي ليست تحويلاً أو نقلاً أميناً للكلمات ، وإنمّا هي تكثيف لدلالة الكلمة التي تتفاعل داخلها أبعاد المصرّح به والملمّح إليه ، وهذه الخصائص لا تأتي في مستوى واحد في الاستعارات جميعها ، ولكن الاستعارات تتفاوت فيما أطلق عليه عبد القاهر(ت:741ه) المفيدة وغير المفيدة ، إذ جعل الفائدة أحد معايير الجودة والرداءة .

ويؤكد عبد القاهر (ت:471ه) منذ البداية أن الاستعارة غير المفيدة نوع " قصير الباع قليل الاتساع " [1] ويعرفه بقوله : "وموضع هذا الذي لا يفيد نقله ، حيث يكون اختصاص بما وُضع له من طريق أُريد به التوسّع في أوضاع اللغة والتنوّق في مراعاة دقائق من الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو : وضع الشفة للإنسان ، والمِشفَر للبعير ، والجَحفَلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ربّما وُجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وُضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه ، ومثل له بقول أبي داود الإيادي يصف فرسا :

فَبِتْنَا جُلُوساً لَدَى مُهرِنَا نُنَزِّعُ مِنْ شَفَتَيْهِ الصَّفَارَا

ويعلق الإمام عبد القاهر على هذا بقوله : فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله من شفتيه وقوله من جحفلتيه لو قاله ، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب ، بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءًا من الفائدة أشبه " [2]

وقد وصف ابن الأثير (ت:622ه) من يَسْتعمل هذا الضرب من التوسّع بأنه جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة ، أو ساهٍ غافلٌ يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن ، كقول أبي نواس :

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله : (بُحَّ صوتُ المال) مِن الكلام النازل بالمرّة ، ومراده من ذلك أنّ المال يتظلّم من إهانتك إيّاه بالتمزيق ، فالمعنى حسن ، والتعبير عنه قبيح .[3]

لقد استعمل ابن الأثير في هذا الضرب مجموعة من الكلمات الدلالية للحكم على الاستعارة منها : استعماله قبيح – جاهل بأسرار البلاغة – ساهٍ وغافل – استعماله لا يجوز ولا يحسن – من الكلام النازل – مما يستقبح ويستكره ، فكل هذه الألفاظ كلمات دلالية للحكم على الاستعارة بالرداءة لعدم تماشيها مع العرف العربي آنذاك.

وهناك نوع آخر من التوسّع ، فإنّه يرد على غير وجه الإضافة ، وهو حسنٌ لا عيب فيه . وهو سبب صالح ؛ إذ التوسّع في الكلام أمرٌ مطلوب .

وقد ورد في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : **"ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"**[1] فنسبة القول إلى السماء

---

[1]) أسرار البلاغة : الجرجاني ، ، ص29.
[2]) أسرار البلاغة : ص30.
[3]) المثل السائر : ابن الأثير ، ج2 ، ص79.

والأرض من باب التوسّع ؛ لأنّهما جماد ، والنطق إنّما هو للإنسان لا للجماد ، ولا مشاركة هاهنا بين المنقول والمنقول إليه .[2]

وكذلك قوله تعالى : **"فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ"**[3]

وأثنى ابن الأثير على هذا النوع لوقوعه في القرآن الكريم والسنة النبوية وقد جعل من التوسع المحمود قول النبي صلى الله عليه وسلم حين نظر إلى جبل أحد يوما فقال : **" هَذَا جَبَلٌ يُحبنا وَنُحبه "**[4] ، فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع ، إذ لا مشاركة بينه صلى الله عليه وسلم وبين الجبل الذي هو جماد.

وأيضا قسم الحاتمي (ت:310ه) الاستعارة من حيث القيمة إلى ثلاثة أنواع : أحسنها عنده ، ما تتضح فيه العلاقة بين الأطراف ، ولا يخل بمبدأ التناسب المنطقي بين الأشياء ، وأقبحها هو ما يسميه بالاستعارة المستهجنة ، وهي الشاهد في هذا البحث ، وسميت بذلك لأنهم استعاروا لما لا يعقل أسماء وألفاظ ما يعقل مثل قول مزرّد:

فَمَا بَرِحَ الْوِلْدانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وَحَافِرِ

فالذي قبح هنا أنه جعل للرجُل حافرا ولا حافر له ، كما عده ابن طباطبا العلوي (ت:322ه) من الأبيات المستكرهة الألفاظ .[5]

ومثل ذلك قول الحطيئة :

قَرَوْا جَارَكَ الْعَيْمَانَ لَمَّا جَفَوْتَهُ وَقَلّصَ عَن بَرِدِ الشَّرَابِ مَشَافِرُهْ

فجعل للرجل مشافر وإنما له شفتان ، والمشافر للإبل ، ومثله قول عقفان بن قيس بن عاصم :

سَأَمْنَعُهَا أَوْ سَوْفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا إِلَى مَلِكٍ أَظْلَافُهُ لَمْ تَشَقّقِ

فجعل للملك ظلفا موضع الظفر ، ولم يكفه هذا بل قال لم تشقق [6]

ثم يطبق الحاتمي هذه النظرة إلى الاستعارة على شعر المتنبي ، حيث عاب عليه قوله :

شَرَفٌ يَنْطَحُ النّجُومَ بِقَرْنَيهِ وَعِزٌ يُقَلْقِلُ الأَجْبَالَا

لأنه جعل لشرف الرجل قرنين ، وهذه وإن كانت استعارة فإنها " استعارة خبيثة جارية مجرى المعاظلة ... والمعاظلة المذمومة أخس الاستعارة ، كما قال أوس بن حجر:

وَذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَباً جَدِعَا

---

[1]) فصلت : 11

[2]) المثل السائر : ابن الأثير ، ج2 ، ص81.

[3]) الدخان : 29

[4]) فتح الباري : ج7 ، كتاب المغازي ، رقم 4083 ، ص377.

[5]) عيار الشعر : ابن طباطبا ، ص105.

[6]) الرسالة الموضحة : الحاتمي ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، بيروت ، 1965 ، ص 71.

فجعل للمرأة تولبا والتولب ولد الحمار ، وهذا من أبعد الاستعارات وأشدها مباينة لمذاهب حذاق الشعراء " [1] .

وموضع الاستهجان في ذلك كما يرى الحاتمي هو عبث الشعراء بالحدود المستقرة بين الأشياء وإخلالهم بالعلاقات المتعارف عليها مما جعلهم يخلطون بين الإنسان والحيوان ، أو بين المعنوي المجرد والمادي المحسوس . " [2]

إن المتتبع لمعالجة الحاتمي لهذه الاستعارة يجده قد استعمل ألفاظا أشد قسوة مما عليه ابن الأثير فقد وصف هذه الاستعارة بأنها: مستهجنة - خبيثة – خسيسة - مذمومة - بعيدة ، ثم الحكم بأنها أخلت بالعلاقات المتعارف عليها ، وعبث هؤلاء الشعراء بالحدود المستقرة بين الأشياء ، وكأنه بهذا يريد أن يتحكم في مجال الفكر والتصور الذي هو بدوره يتحكم في اللغة والأدب.

كذلك ذكر قدامة (ت:337ه) نفس الأمثلة التي ذكرها الحاتمي ، وعد قول أوس والحطيئة ومزرّد داخلا فيما أسماه المعاظلة ، وهي تشير إلى التداخل وتشي باختلاط الحدود بين الأشياء وهو بذلك يطلق على الاستعارات الرديئة التي تخلط بين حدود الانسان والحيوان فاحش الاستعارة ويقول عنه : " إن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه " [3]

ويستنتج من كلامه هذا أن "الاستعارة عنده تعنى استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي لعلاقة المشابهة ، وهذه المشابهة لابد أن تكون قريبة وواضحة" . [4]

فالاستعارة نوعان عند قدامة : مقبولة وغير مقبولة .

فالمقبولة هي التي لم يفرط فيها المتكلم بإبهام الفكرة والبعد بها إلى الوضوح ، والاستعارة غير المقبولة هي ما كانت عكس ذلك .

ويستنتج من كلامه عن فاحش الاستعارة "أنه يوجب في العلاقة وهي المشابهة عنده أن تكون قريبة غير مبالغ فيها إلى حد يخرجها عن حيز الإفادة ووضوح الدلالة ، ومن أجل ذلك ذم استعارة التولب للصبي والحافر لقدم الانسان لبعد المشابهة ، والتي أدت إلى خفاء الدلالة وغموض المعنى ، كما يستنتج من كلامه أيضا في حديثه عن الاستعارة المقبولة وغير المقبولة والشواهد التي أوردها لكل منها أنه يعنى بالاستعارة : استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي لعلاقة المشابهة" . [5]

---

[1]) المرجع السابق : ص91.

[2]) الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي عند العرب : جابر عصفور ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1992م ، ص211.

[3]) نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) ، ص103.

[4]) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية والجمالية : د. يوسف أبو العدوس ، ط1 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1997م ، ص68.

[5]) الاستعارة وأثرها في الأساليب العربية : د. محمود السيد شيخون ، ط2 ، دار الهداية ، القاهرة ، 1994 ، ص16.

هذا الوضوح يشترط فيه ألا يصبح سبيلا إلى ابتذال الاستعارة، وإذا كانت الاستعارة تعتمد سبيلا منطقيا إلا أنها لا تقوم بمهمة المنطق ولا تتكفل بالإقناع الذهني، بل عليها أن تعرض وأن تستكشف الطرق الموجودة للإقناع.

الاستعارة غير المفيدة والحكم بالقيمة :

إن المتتبع لمعالجة عبد القاهر لمبحث الاستعارة يجد أنه لم يعمد إلى صياغة قوانين إنشاء الاستعارة ، أو تحكم رؤيتها من قبل الناقد المحلل المؤول ، أو تحمل معايير الحكم بالقيمة ، ولكنه راح يتتبع ظاهرة الاستعارة في الاستعمالات المختلفة ، ثم كان الجهد الذي قدمه إنما هو جهد في التصنيف والتحليل والتأويل ، يعقبه جهد في بيان الفضل والقيمة في إثراء المعنى وتكثيفه.

كما أن تقسيم عبد القاهر الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة تقسيم غير مطلق إذ ينبغي أن يكون له من نظر المحلل ضابطا ، فهو بذلك يؤسس لمبدأ المرونة والنسبية في القاعدة البلاغية فيما يتعلق بالتقسيم والتصنيف والتفريع .

ومن خلال معالجة الشيخ لمبحث الاستعارة غير المفيدة يتضح أن موقفه يتأرجح بين ثلاثة:

الأول: يؤكد فيه أن التجوز قد مس اللفظ دون المعنى ، وهو سبب تسميتها استعارة لفظية .

الثاني: يؤكد فيه أن المعنى قد مسه بانقلاب معنى الكلمة من الاختصاص إلى العموم ، أو من النوع إلى الجنس ، وذلك في قوله : فإذا توهمت جري الاستعارة في الاسم زالت عنها هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك ." [1] فهو لا يعتبر هذا تغييرا مجازيا أو استعاريا بالرغم من التغيير في المعنى .

الثالث: يعتبر بعضا من أمثلة الاستعارة غير المفيدة استعارة مفيدة بحكم وظيفتها التشبيهية التي تنجزها ، وذلك من خلال عقد علاقة مشابهة لغوية تثري الدلالة بالنفاذ إلى معنى ثان يتجاوز المعنى الحرفي .

وللدكتور أحمد صبرة رؤية مغايرة لما ذهب إليه الجرجاني في قول أبي داوود الإيادي:

فَبِتْنَا جُلُوساً لَدَى مُهرِنَا نُنَزِّعُ مِنْ شَفَتَيْهِ الصَّفَارَا

حيث يقول : " عملية الاستبدال التي يقترحها الجرجاني هنا تفتت البيت ، وتغير من طبيعة العلاقات التي يحتويها ، إن المهر في البيت بمثابة ابن من أبناء هذا الشاعر ، ابن يحاط بعناية ورعاية خاصة تمثلت في جلوس الشاعر وأفراد أسرته أو أصدقائه لدى هذا المهر ينزعون من جحفلتيه بقايا الطعام من تبن وقش وغير ذلك ، لقد أراد الشاعر أن يبين مدى الحميمية التي تربط المهر به ، فاستخدم لفظة شفتيه ليدخله كفرد من الأفراد " . [2]

---

[1]) أسرار البلاغة : الجرجاني ، ص 34.

[2]) المجاز في الدراسات الغربية (التركيب ، التأويل ، رؤية العالم) : د. أحمد صبرة ، ط1 ، نادي مكة الثقافي الأدبي ، مكة المكرمة ، 2016م ، ص 80.

إن الشاعر في مثل تلك الاستخدامات لا يعبث بمواضعات اللغة ، ولكنه يوظفها توظيفا فنيا في تجسيد تجربته ، والإيحاء بمشاعره .

ومن ذلك قول الحطيئة مستعطفا أمير المؤمنين عمر رضى الله بعد أن ألقى به في السجن :

مَاذَا تَقُولُ لِأفراخٍ بِذِي مَرَخٍ زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ

ألقيْت كَاسِبَهُم في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغفرْ ، عَلَيْك سَلَامُ اللهِ يَا عُمَرُ

"فلفظ الأفراخ تعنى في أصل اللغة صغار الدجاج ، ولكن الحطيئة يستخدمها في البيت الأول ليشير إلى أولاده الصغار الذين تركهم في موطنه ذي مرخ ، وهو بذلك يجسد ما عليه هؤلاء الأطفال من ضعف وعجز ، ومدى حاجتهم إلى العائل الذي يكفل رعايتهم وحمايتهم ، وهو بذلك يهدف إلى إثارة عاطفة الرحمة والإشفاق كي يعفو عنه ويطلق سراحه" . [1]

"لقد أبدع الحطيئة لأولاده معادلا جديدا تحقق في واقع الأفراخ التي مازال يكسو جلدا ريش لا يقوى بها على الطيران ، وهي في أرض جدباء لا نبت فيها ولا ماء ، وبانتقال القارئ إلى تلك البيئة الأسلوبية الجديدة تتفجر بداخله ينابيع الحقائق الشعرية المبتدعة." [2]

ومنه أيضا في النثر قول أحد المحامين في إحدى مرافعاته : **" انظروا إلى هذا الحَمَل الوديع "** فكلمة الحمل في أصل اللغة تطلق على صغير الضأن ، وقد أراد بها الدفاع هنا تجسيد ما عليه المتهم من البراءة وعدم القدرة على ارتكاب الجرائم ، وهو بذلك يستعطف القاضي كي يعفو عنه ، فقد وظف الاستعارة توظيفا فنيا يجسد الحال والواقع .

لكن تبقى للجرجاني ميزة كبيرة في الالتفات إلى هذا النوع من الاستعارات ، وإلى أهميتها في التغيرات الدلالية ، أو التوسعات اللفظية التي تحدث في اللغة .

وهذا ما جعل الدكتور أحمد صبرة يتساءل: **هل الاستعارة غير المفيدة عند عبد القاهر هي نفسها الاستعارة الميتة أو المجمدة في الدرس الغربي ؟**

ويجيب عن هذا التساؤل قائلا : "إن تحرير هذه المصطلحات قد تكون له أهمية في بيان الكيفية التي تنشأ بها الاستعارة ، والطريقة التي تؤثر بها ومدى هذا التأثر ، فحين يستخدم عبد القاهر مصطلح الاستعارة غير المفيدة ، يكون السؤال حول هذا

---

[1]) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية : د. شفيع السيد ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، 1982م ، ص131.

[2]) التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية : د. عدنان حسن قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، ص131.

المصطلح : غير مفيدة لمن ؟ وحسب السياق الذي يتحدث فيه عبد القاهر والأمثلة التي يستخدمها ، فإن هذا النوع من الشعر يبدو غير مفيد في مجال الشعر" . [1]

فعبد القاهر طبق الاستعارة غير المفيدة على الشعر ولم يستخدمها في مجالات اللغة الأخرى ، وبالرجوع إلى كتابي عبد القاهر لم نعثر على أية إشارات حول هذا الموضوع ولكن يحسب له أنه أشار إلى أهمية الاستعارة غير المفيدة في موضوع التوسع في أوضاع اللغة .

مما جعل الدكتور عبد الإله سليم يقول : " إن جزءًا مهما من نسقنا التصوري قائم على الاستعارة ، التي هي أساسا وسيلة من الوسائل التي نُمَقْوِل بواسطتها الموضوعات والأوضاع ، لذلك يجب ألا نستغرب إذا وجدنا كثيرا من كلامنا استعارات ميتة نسى مستعملوها أنها ناتجة عن ملاحظة علاقة من نوع معين ، أو استعارات جذرية ، لا نكاد نلاحظ جانبها الاستعاري ، أو استعارات شعرية يحركها دافع إبداعي." [2]

كذلك هناك ما يعرف بالاستعارة المبتذلة ، والابتذال إنما هو معنى من معاني موت الاستعارة ، لكن يبقى السؤال عما إذا كان موت الاستعارة بتأثير دوران الاستعارة في الاستعمال ، وأن تكرار الاستعمال هو المسئول عن موت الاستعارة ، أم أن موتها يرجع إلى عامل الزمن ؟ أم أن الاستعارة الميتة تولد ميتة ؟ أم يرجع إلى عامل السياق اللغوي الداخلي؟ أم يرجع إلى سطحية العلاقة الذي يلتمس بعاملي الزمن وكثرة الاستعمال ، حيث لا يكون الأمر أمر استهلاك ، وإنما هو أمر علاقة تمتد جذورها من المنشأ إلى سياقات التلقي ؟

لعل هذه التساؤلات – كما يرى الدكتور عيد بلبع – تكشف لنا أن حياة الاستعارة وديمومتها ، أو ابتذالها وموتها يمكن أن ينظر له من عدة زوايا تتعلق جميعا بالرؤية التداولية للاستعارة ، ولعل أولى هذه الزوايا تتعلق في جدة الاستعارة وتكرارها ، أو ما أطلق عليه مورجان Morgan الاستعارة الجديدة والاستعارة المخزنة " . [3]

فالاستعارة الجديدة عند مورجان Morgan هي الحالة التي لم يقابلها الفرد من قبل ، والتي يجب على الفرد أن يتخيلها ، أو ينبغي عليها أن تقوم هي بعملية التخييل للمتلقي ، فهي بكل المعايير علاقة جديدة أي مولود جديد .

والاستعارة المخزنة هي التي يكون كل شخص ملما بها ربما دون تفسير يعتمد على المعنى الحرفي ، أي دون سيرورة تأويلية سوية ، إما لكونها من الثوابت في الوعي الجمعي التي تمثل نمطا من الإيمان الأسطوري الذي لا يبحث في المبررات والعلل أو السيرورات .

---

[1]) التعبير البياني : ص 81.

[2]) بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفية : د. عبد الإله سليم ، ط1 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2001م ، ص68.

[3]) التداولية البعد الثالث في سيموطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة : د. عيد بلبع ، ط1 ، بلنسيه ،2009م ، ص380.

وعليه فالاستعارة المبتذلة : "هي تلك الاستعارات التي عمرت وقتا طويلا ، والتي تستعمل كبدائل لأفكار واضحة على نحو عاطفي على الأغلب ، ولكن دونما تجانس مع حقائق الأمور" [1] .

ويدخل ضمن هذا النوع الاستعارات العلمية والدعائية ، والاستعارات المألوفة التي تأتي بمثابة التعبيرات الجاهزة التي ربما انتقلت من بعدها الفني لتصبح ثابتة للتعبير عن بعض حالات التواصل اليومي بين الناس ، كما يدخل ضمن هذا البعد أيضا التطور الدلالي الذي يطرأ على استعمال فيغيب فيها البعد المجازي ليركن إلى نمط خاص من الاستعمال الحقيقي . [2]

وقد يعي بعض الشعراء التضاؤل التدريجي في قدرة بعض الاستعارات على التأثير ، فيلجأ إلى إعادة تركيبها في صياغة جديدة ، وتوليد علاقات دلالية جديدة في الصورة الاستعارية الميتة ، مثلما فعل المتنبي في قوله :

لَيْتَ الْغَمَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ

فقد أدرك المتنبي أن صورة الغمام التي أصبحت رمزا للكرم في الشعر العربي لا يستطاع استخدامها في علاقاتها القديمة دون أن تكون مبتذلة ، فعمد إلى استكشاف علاقات جديدة فيها ، وصياغتها في هذه الصورة التي تجمع أطرافا ثلاثة : الممدوح والشاعر والحساد ، ثم يكون الغمام رابطا بينهما ، فالغمام ليس مطراً فقط ، أي ليس حياة ، بل هو صواعق أيضا ، أي موت. [3] وهو ما يعرف بانتهاك العلاقات .

فالغمام عند المتنبي أصبح رمزا يحتوي في داخله على عنصرين متضادين : الحياة والموت .

وقد لاحظ أصحاب الشروح في قول كثير :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيّ الأَبَاطِحُ

أن "البيت مشتمل على ثلاث مجازات أحدها مجاز بالاستعارة ، والآخران مجازان عقليان ، والحاصل أن الشاعر استعار سيل الماء لسير الإبل في المحل الذي فيه دقيق الحصى استعارة مبتذلة لكثرة استعمالها ، فلما أن أضاف إلى الاستعارة هذين المجازين ، صارت غريبة ، ولا يأتي بها إلا من له ذهن ارتقى به عن العامة." [4]

وقد تتبع د. محمد الولي نقل الاستعارة من سياق إلى آخر بوصفه عملا إيجابيا ، حيث يأتي السياق الجديد تخصيبا للاستعارة المبتذلة أو غير المفيدة فيكسبها جدة ويمدها بأسباب الحياة ، وقد أشار إلى رأي بيرلمان في قوله : "إننا بمجرد ما يغدو التشبيه في

---

[1]) في ترجمة الاستعارة : د. عبد الله الحراصي ، مجلة نزوى ، العدد الثالث ، يونيو 1995م ، ص 50.

[2]) التداولية : د. عيد بلبع ، ص 381.

[3]) المجاز في الدراسات الغربية : د. أحمد صبرة ، ص82.

[4]) شروح التلخيص : ج4 ، ص91.

الاستعارة غير المفيدة مصحوبا بأية جزئية ، والمستحسن هنا تمديد التناسب ، فإن العبارة الأكثر ابتذالا يمكن أن تعود حية". [1]

ومثل لهذا بقول المتنبي :

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيرِهِ وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلّ السّوَاقِيا

ثم علق على هذا البيت بقوله : "إن استعارات البحر من أشد الاستعارات ابتذالا إلا أن السياق هنا أضفى عليها من الطرافة والجدة ، مالم تكن تتمتع به خارج هذا السياق ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الموت كثيرا ما شبه بتناول مشروب من كأس ، ولكثرة هذه الاستعارة فقد بليت وعلاها الصدأ ، إلا أن أبا الطيب أكسبها من الطراوة مالا يستطيعه إلا هو ، حيث قال:

أحِنَّ إلى الكَأسِ الّتي شَرِبَت بِها وَأهوى لِمَثواها التُرابَ وَما ضَمّا

فيمكن لهذه الاستعارة الميتة أن تنبعث بتغير السياق المعتاد ، بفضل استعمال العبارة الاستعارية في شروط سياقية غير معتادة ، وذلك يسترعى الانتباه إلى الاستعارة في السياق الجديد" . [2]

ويستنتج من كلام د. محمد الولي أن للسياق دور في تعليل الحكم للاستعارة بالجودة أو الرداءة (الحياة والموت).

فلا يكتفي دور السياق بالوقوف عند حدود السيرورات السيميائية ، وإنما يعين أيضا معالم الاعتباطية والتعليلية في العلامات ، ويحدد منزلة الموضوعات وبناها من حيث التضايف بين الدوال والمدلولات ومراجعها ، فالسياق هو الذي يمنح الحياة للعلامات .

كما يرى الدكتور أحمد صبرة أن للاستعارة الميتة "وجها آخر ليست له صلة مباشرة بالشعر أو بقانون التضاؤل التدريجي الذي افترضه اسيفان أولمان للاستعارات الحية ، هذا الوجه يتصل باللغة وبحاجة المتكلمين بها إلى التعبير عن علاقات قائمة لا يستطاع التعبير عنها بالإيجاز إلا من خلال استخدام الاستعارة ، فحين يقال مثلا : "رجل الكرسي" أو "عين الإبرة" فأنت إزاء استعارة سدت حاجة المتكلم إلى الإيجاز".[3]

فهذه التعبيرات فقدت مجازيتها لاقتصارها في الاستعمال العادي على سياق واحد ، وتحولها إلى معان شبه معجمية .

وقد أدرك ماكس بلاك هذه القيمة في الاستعارة فقال: إن علماء الرياضيات تحدثوا عن "ساق الزاوية" لأنه لا يوجد تعبير مختصر لهذا الخط المحدد ، ونقول "شفاه كرزية" لأنه لا يوجد شكل من الكلمات يكون ملائما للتعبير باختصار عن ماذا تشبه

---

[1]) الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية : د. الولي محمد ، منشورات دار الأمان ، ط2 ، الرباط ،2005م ، ص473.

[2]) المرجع السابق : ص474.

[3]) المجاز في الدراسات الغربية : د. أحمد صبرة ، ص83.

الشفاه ؟ فالمجاز يسد الثغرات في المفردات الحرفية ، أو أقله يمدنا بالاختصارات الملائمة .

فهذا النوع من الاستعارات يرد وبكثرة في لغة الناس ، لذلك اعتبرها (لاكوف وجونسون George Lakoff & Mark Johnson) استعارة عامة تتحكم في الكلام بالرغم من الاختلافات الثقافية .

وبناء على ذلك تكون الاستعارة الميتة: هي وضع معان جديدة لألفاظ قديمة ، هذه المعاني الجديدة ستصبح وبسرعة جزءا من المعاني الحرفية ، وهنا لا بد من طرح سؤال ، ما الذي يموت في هذه الاستعارة ؟ وكيف يموت ؟ إن الذي يموت في هذه الاستعارة هو قدرتها على إحداث تأثير من نوع خاص على المتلقي ، لأن معجمة الاستعارة تخفف من مفعولها بحرمانها عنصر المفاجأة ، الذي هو كما يرى الدكتور عيد شبايك مناط التأثر في المتلقي ، بإثارة الدهشة في نفسه . [1]

"إن إنشاء المجازات وفق مبدأ الإيجاز الذي قرره ماكس بلاك كثير في الحياة اليومية ، وفي كل اللغات ، ويظهر هذا الأمر أكثر في صك المصطلحات اليومية في العلوم الطبيعية التي يؤدي فيها المجاز دورا مهما ، وقديما التفت اللغويون إلى هذا الأمر وأشاروا إليه إشارات متفرقة في بحثهم عن ظاهرة المشترك اللفظي فيما سمي بالوجوه والنظائر ، ورصدوا عددا كبيرا من الألفاظ في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وكذلك في لغة العرب يحدث فيها هذا الاشتراك اللفظي" . [2]

القرآن والاستعارة الميتة :

إن القرآن الكريم لغة لكل عصر يسمعها كل إنسان ، فيرى فيها الجديد والجديد ، ولهذا عالج مشكلة موت الاستعارة بالرجوع إلى أسباب موتها ، وهو اختلاف الأجيال المتتالية في تصورها للأشياء ، لهذا اعتمد القرآن الكريم في استعاراته على صفات ثابتة في الشيء لا تتبدل عبر الأجيال ، بل تظل ثابتة متوارثة ، وقد بنيت تلك الصفات في التصور الذهني لكل البشر ، وهذا هو سر ثبات الاستعارة القرآنية وتجددها رغم تعاقب الأجيال التي تناولته بالقراءة والتفسير.

ويقول الدكتور عطية سليمان أحمد في كتابه الاستعارة القرآنية والنظرية العرفانية : فإذا كانت الاستعارة تولد جديدة نتيجة الإبداع والابتكار كل يوم ، ثم تصبح قديمة بعد ذلك ، بل ميتة ، فكيف يكون في القرآن الكريم مثل هذه الظاهرة التي تتحول فيها الاستعارة من الجديد إلى القديم أو الميت أو المبتذل؟ لقد جاءت الاستعارة القرآنية حاملة معها عناصر التجديد ، كما في قوله تعالى :**"لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا**

---

[1]) الاستعارة في الدرس المعاصر وجهات نظر عربية وغربية : د. عيد شبايك ، دار حراء للنشر ، القاهرة ، 2005 ، ص26.

[2]) المجاز في الدراسات الغربية : د. أحمد صبرة ، 84.

لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ"[1] ، يقول القرطبي وهم يجمحون أي يسرعون ، لا يرد وجوههم شيء من جمح الفرس إذا لم يردَّه اللجام."[2]

فقد اعتمدتْ الاستعارة في يجمحون على الصورة الذهنية لدى العربي عن الفرس الجامح، وهو الفرس الفار من صاحبه ، وما فيها من جمع بين صفتين هما السرعة والخوف ، ففي عصرنا يوجد من يسبق الفرس كالطائرة ، ولكن لا توجد طائرة تجمع بين الصفتين: السرعة مع الخوف ، فتظل الصورة الاستعارية في يجمحون متجددة ، ويظل مجال الهدف أصحاب النار حاملا خصائصه الأصلية الخوف الشديد مع نقله لصفات مجال المصدر الفرس الجامح وهى السرعة الشديدة.[3]

ومنها قول الشاعر :

وَإِنِّي عَلَى إِشْفَاقِ عَيْنِي مِنَ الْعِدَا لَتَجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةً ثُمَّ أَطْرِقُ

فقد أجاد ابن المعتز في استعارة "تجمح منى نظرة" لما فيها من جمع بين صفتين هما السرعة والخوف ، ولم يقل تطير منى نظرة مثلا لأن تجمح تعبر عما يدور داخل الشاعر من مشاعر الخوف والحيرة من هذه النظرة ، فكانت هذه الاستعارة معبرة عن الحال ولم تكن مبتذلة بل هي جديدة باقية بقاء الحياة .

إن الغاية من الاستعارات القرآنية غاية تفهيمية ، وبناء بنية تصويرية لأشياء جديدة فهي استعارات مفهومية ، وليست جمالية فحسب ، حيث تأتى لغرض أساسي ، هو تفهيمنا شيئا لا نعرفه ، أو لم نره من قبل ، وعلينا أن نتخيله في حدود ما لدينا من طاقة ذهنية ، ووسائل بيئية محيطة بنا، ونتعايش معه، بل نعدل من سلوكنا ليتوافق مع هذا الشيء الذى نتخيله ، فنفعل ما يقربنا إليه ، ونجتنب ما يبعدنا عنه ، وهذا يدخلها ضمن نظرية الاستعارة المفهومية التي نادى بها لايكوف ، حيث تصبح الاستعارة أداة مَفهمَة وتمثيل وتصور يعم كل مظاهر الفكر بما في ذلك المفاهيم المجردة والمتصلة بالمجالات الأساسية من قبيل الزمن ، والأوضاع ، والمكان ، والعلاقات ، والأحداث ، والتغيرات ، والجعل ، وما إليها لهذا فالاستعارة ظاهرة مركزية غالبة في دلالة الكلام العادي اليومي ، وهى جزء من الفكر من حيث مثلت أداة في تصور العالم والأشياء وتمثّلها في جميع مظاهرها .[4]

ويستنتج من هذه الدراسة ما يلي:

---

[1]) التوبة : 57.

[2]) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق د. عبدالله بن عبد المحسن التركي ، ج10 ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2006م ، ص242.

[3]) الاستعارة القرآنية والنظرية العرفانية : د. عطية سليمان أحمد ، ص4.

[4]) نظريات لسانية عرفانية : الأزهر الزناد ، ط1 ، دار محمد على يونس ، تونس ،جوان ، 2009م ،ص142.

- أن الحكم بالجودة والرداءة هو نقد قيمي وهذا النقد هو الذي يصطنع المقاييس ، وذلك عندما يكون نقدا معللا .
- كان المتأخرون يستحسنون من الشعر ما وافق الطبع وحرك الأريحية ، ويزرون على المتكلف المجتلب .
- يعد معيار الفائدة من معايير الحكم للاستعارة بالجودة والرداءة ، فإن قصد بها التشبيه كان الحكم بالجودة ، وإلا حكم عليها بالرداءة .